مناقشات

الشعر والنقاط الاخرى

بقلم : خليل احمد خليل

لعل مجلة « الاداب » ستطيع ان تبلغ غايتها حينما تفتح الباب المغلق امام ناقد خاص هو ناقد النقاد . ان المحاولة بحد ذاتها ظاهرة جيدة وخطرة . جيدة لانها ساعد القراء والنقاد والكتاب ان يتفاعلوا في جو ، نظريا ، غير محموم ، وفيه شيء من النضج الموضوعي ـ اذا كانت الموضوعية ممكنة ـ وان يدخلوا في فصل حواري ربما افاد المشتركين فيه . فمن هم المشتركون ؟ كيف يشتركون في الحوار ؟ وما هي الغاية الاخيرة من حوارهم هذا ؟ ان المشترك الحقيقي كما يبدو لي في هذه اللعبة الخطرة لا بد ان يحترم بعض قواعدها ، وذلك بالتخلص من العداء المنهجي من ناحية ومن جهله الخاص من ناحية اخرى . المشتركون قليلون بالنسبة لقراء « الاداب » لكن المستمعين كثيرون . أما طريقة اشتراكهم في فهم الشعر وتعاريفه فهي كما اعتقد ميكانيكية يخالطها شيء من العقلانية . هذا لا يعني انني انفي عامل الوعي تماما لكنني لا اؤكد وضوحه فيما يجري من مناقشات . واقول ان هذه الظاهرة خطرة اذ انها تؤدي الى طريقة كلاسيكية في فهم الاشياء : لا بد من اصدار حكم على النقاط التي نعالجها ، الشعر الذي ننتقده مثلا فتكون النتيجة سيئة ، عاجزة وغير نافذة ، ذاك اننا حينما نأخذ كتابا شعريا ، كتاب انسي الحاج الشاعر اللبناني مثلا ، فيجب ان نتساءل كيف نريد ان نقرأ هذا الكتاب . هل نتخلص من أفكارنا المسبقة ، ثم نبادره بروح نبيلة ، اعني بوعي تام ، أم اننا نسخر كل همنا للحقد على الكاتب فنضيع بذلك بين احكام موروثة مجدبة ونضيع القراء ونقلل من قيمة الكاتب .

ان السؤال الرئيسي يتلخص فيما يلي : كيف نقرأ ؟ كيف قرأنا ؟ كيف كتبنا ؟ كيف نريد أن نقرأ وان نكتب ؟ هذه السلسلة من الاسئلة نضعها أمام امر واحد : كيف نختار أي كيف نستخدم حريتنا ؟ والاختيار مرتبط اساسا بحياتنا وارتباطاتها وتبادلاتها ، بمستوانا الفكري وأهدافنا الانسانية . لكن مهما وضحت أهدافنا ونضجت أفكارنا نبقى غير محدودين . وان اصدار حكم نهائي على أي عمل يعني أننا جمدناه في الزمن . وهذا ما ينطبق على العمل الادبي . فنحن حينما نتناول « ماضي الايام الآتية » لانسي الحاج ، فنحن نعرف ان هذا الكتاب ابن مرحلة زمنية محدودة وهو ككتاب لن يتطور في الزمن ، الا ان انسي الحاج سيتطور اي سيتغير . لذا كانت ضرورة النقد . فنحن لا ننقد الحجر . لكنه حين يصير تمثالا نقوم بنقد فني لمهارة النحات . ونحن في الشعر لا ننتقد الكلمات ـ الوسائل ـ ولا انسي الحاج شخصيا ، ننتقد مهارة انسي الحاج في مرحلة زمنية معينة . اذن عندما انتقد كتابه كجزء : ليس من الضروري ان اتكلم عن كل كتاباته . وانا كناقد لي حق الاختيار في الالحاح على نقطة دون أخرى . وأنا بعيدا عن كل صراعات العصر الرومانسية حول نوع الكلمات وطريقة رصفها عاموديا أو نثريا أو بحرية ، بعيدا عن كل اضطرابات العصر في فهم الشعر ، أحاول ان استجلي الانسان الضائع داخل وعلى حدود أو خارج هذا الخضم الجدلي . انني أنطلق من فكرة الرائد هيرافليطس الذي يقول : « الجدلية هي صراع المتناقضات فحيث هناك حركة هناك تحول . لكنني أبحث عن نفسي ضمن هذه الحركة » . والواضح انني حاولت في مقالي « أربعة شعراء وتجديد » أن أثير بعض جوانب التحول لدى البياتي والحاج خاصة ، وان أتوغل في جبلة الانسان ـ اذا كان له جبلة ـ محاولا ان أرى شخصية الانسان الاخيرة . ولربما كان منهجي غير تاريخي وانا لم أقل انه كذلك . الا ان لي منهجا واضحا بنظري ، يتلخص كما يلي : لا بد للناقد من تكوين فكرة عامة عن العمل الادبي وذلك بواسطة الحدس . وهذا ما يتمتع به كل انسان . الا ان الغموض يكتنف هذه النقطة العمياء التي هي الحدس المختلفة عن التكهن . لذا لا بد للناقد ان يختار النقاط الشعرية المهمة في المؤلف وان يعمد الى تحليلها وذلك بواسطة عرضها والتقديم لها . فيخلق بذلك جسرا بين الشعر وفهم الشعر .

والنقد هو اجابة على السؤال كيف نقرأ ؟ ماذا نقرأ ؟ ما معنى القراءة ؟ ما هي علاقتها بالانسان المكرس للتوغل ؟ .. لذا كل نقد هو محاولة جانبية وغير مكتملة ، ويختلف من ناقد الى اخر ، حسب الاتجاه والاهتمام الشخصي وحسب التربية الاجتماعية والفكرية وحسب النظرة الفلسفية ومدى النضج السياسي . اذن النقد مشترط بعدة عوامل غير متناسقة تماما ولربما كانت في أساس اختلاف الاشخاص . وهنا نثير مشكلة أخرى لا مجال لنقاشها : هل للانسان طبيعة وما هي ؟

أما الاستاذ صبري حافظ فيعتقد ان مقالي « أربعة شعراء وتجديد » « فيه كثير من الظلم لهذه الدواوين وقليل من الاحترام لها » . وهذا حكم على المقال لا بد من تبريره . فهو رغم وضوحه الظاهري غامض في الحقيقة ولا يثبت تحت مجهر النقد الصحيح . فان « الظلم » تعبير ايديولوجي يستعمله كل فرد يشعر أن حقه قد انتقص . وقد تستعمله الجماعة فيتحدث حينئذ عن الظلم الاجتماعي. الا ان مفهوم الظلم غير واضح تماما وهو يفترض اتخاذ موقف سابق ـ موقف موروث غالبا ـ نظري نحاول بواسطته أن نحاكم الواقع ، ان نتمرد عليه وان نتخطاه ـ بالمعنى الهجلي للتخطي ـ . الا ان هذا لا يعني أن هذا الاختيار غير خاطيء في منطلقه ولا انه صحيح تماما . فباستطاعتنا ان نطلق صفة الظلم على موقف عادل بنظر الاخر . لذا كنت ارجو من الاستاذ حافظ ان يعطينا مثلا عن ظلمي . وذلك بأن يعمد الى المقارنة بين الصورة الخاصة التي كونها عن هذه الدواوين او عن بعضها وبين الصورة التي اعطيتها عنها في مقالي . وكذلك هو الامر بالنسبة لتعبير « احترام » . يحسن ايضا ان يوضح لنا كيف نحترم العمل الفني وكيف نحتقره . وكل ما أرجوه هو ان نوضح التعابير التي نستعملها فحينما يقول : « فيه قليل من الاحترام » فيجب أن يقنعنا بنظرته . ثم ان الاحترام ليس ضرورة قائمة بذاتها . فهناك اشياء لا تستحق الاحترام . وهذا لا يعني انني لا احمل احتراما انسانيا لهؤلاء الشعراء كنفس الاحترام الذي أحمله لكل انسان في الارض .

وهذا لا يمنع ان أقول رأيي سلبيا كان أو ايجابيا . فالقضية لاتنحصر في أن نكون ضد او مع ، بل في أن نفهم ، والفهم مشكلة مطروحة فلسفيا عند ماكس فبر weber وهي غير محلولة تماما . ذاك ان طرقا كثيرة في الوصول الى الاعماق ممكنة مثل الشرح السببي ، او التركيبي او الوظائفي الخ... ونحن نحاول ان نفهم وما نفهمه لا نزعم بانه وحيد فريد . أنواع أخرى من الفهم ممكنة ومن الافضل ان نكتفي هذه الانواع لتتم بعضها البعض . فلربما كان تعليق الاستاذ صبري حافظ مهما ومتمما لما شرعت في عمله ، الا انه هو الاخر يحتاج الى توضيح وتدقيق . فهو يقول ان مقالي : « مجموعة من الاحكام العمومية المتسرعة » وأنا لا أدري اذا كان هذا الحكم متسرعا أم لا . ليس من الضروري ان يدافع الانسان عن نفسه غريزيا كأنه يحس بحاجة خاصة للحماية الشخصية . الا ان عليه ان لا يتسرع في الانفتاح على الاخرين وفي طريقة الحوار معهم . فلربما أغلق بابا كان يمكن التعرف منه على عالم انساني اخر قد لا يختلف كثيرا عن عالمه الخاص . الا ان الرغبة المثالية في الشمولية تؤدي الى اصدار احكام جاهزة كهذه .

ثم يعتقد الاستاذ حافظ ان قصيدتي « محنة ابي العلاء » و « عذاب الحلاج » هما أهم قصيدتين وهذا رأي شخصي . وأنا لا أؤمن بالانسان فقط بل بالانسان الموجود في عالم محدود بشروط ثقافية وتكنيكية واجتماعية خاصة . ان وجود ناقد في مصر غير وجود ناقد في فرنسا . وان النظرة المثالية التي تقول ان الانسان هو الانسان اينما حل خاطئة . ابن الفلاح الذي يدخل الجامعة في بلده يصير شيئا اخر ، مختلفا عن الفلاحين نسبيا : انه يتغير ، يختلف عنهم في بعض جوانب التنمية ، ويتحول . والأستاذ يطالبني أن أغوص في اغوار

عذاب الحلاج . فبالله اين هو الحلاج حتى أغوص في أغواره ؟ ان الحلاج قد وصل الينا عبر شعره وكتاباته ونحن نختلف في فهمه ولعل الاستاذ صبري حافظ يعتقد انني لم أسمع بالحلاج لان فرنسا بعيدة عن الشرق . ان ادونيس هو أول من كتب شيئا عن الحلاج : مرثية الحلاج في كتابه « اغاني مهيار الدمشقي » ثم انا ثاني من كتب عن الحلاج الذي هو انا في القرن العشرين . قصيدة ظهرت عام ١٩٦٣ بعنوان : « الحلاج وبئر المسرة » في مجموعتي « الصوت الاخر » . فنرجو من الاستاذ الكريم ان يوضح لنا ما هو عذاب الحلاج الذي لم نصل الى استقصائه في شعر البياتي ؟

اما فيما يتعلق بانسي الحاج فهو شاعر لبناني مهم جدا ، يملك كل روحية الشاعر وتطلعاته . وهذا رأي شخصي . الا ان نقدي كان موجها لبعض نقاط بدت لي مهمة في شعره . أما ان يكون انسي قد تأثر بهنري ميشو فهذا أمر مغلوط . انسي انسان لا يستطيع ان يقلد. ان التمرد هو حقيقته الوحيدة ـ سواء كان سلبيا او ايجابيا ـ . واما مشكلة البحث عن أصول قصيدة النثر فلم يكن واردا في تخطيطي لهذا المقال وقد اعتذرت عن ذلك واشرت للقارىء ان باستطاعته مراجعة مقدمة « لن » لانسي الحاج او مقال ادونيس عن قصيدة النثر . وباستطاعة القارىء ان يراجع كل ما كتب بالفرنسية عن قصيدة النثر عند رامبو وسواه وخاصة « نقد الشعر من رامبو الى السريالية » أو مراجعة كتاب « الفن الشعري » بالفرنسية . الا ان مقالي لم يكن مكرسا لمعالجة قصيدة النثر أبدا . أما الاصول التي نهل منها انسي الحاج فهي غير موجودة حسب الفهم الايديولوجي لمعنى التأثر . صحيح ان انسي الحاج يقرأ الشعر الفرنسي كسواه من المنفتحين على العالم الغربي الا ان له طريقته الخاصة في فهم الاشياء وما يبحث عنه غير واضح تماما نظرا لانعدام الخطة العامة في حياته ـ الخطة السياسية او الثقافية . الا انه يرمي بحق الى توسيع دوائر الحرية المتخلفة والنهوض ـ ربما بطريقة مختلفة عن محاولات الملتزمين العرب ـ بالانسان في بلادنا. ربما كان انسي أقرب الى ارتو منه الى ميتسوفينا.

الا ان مهمتي لم تكن قائمة على عقد مقارنة بين انسي والادب الفرنسي. ربما كان ذلك يؤدي الى افقار مقالي . الا انني لا اؤمن منطلقيا بضرورة مثل هذه المقارنة اذ انها عديمة الفائدة وخاصة ان شاعرا مهما كانسي هو زئبقي ولا يريد ان يكون الا نفسه ويرفض ان يرى ظلا له في العالم . هذه هي حقيقة الشاعر الاخرى المنبثقة في نقاطه الخاصة .

أما ان تكون الغاية من مقالي هي الحديث عن التجديد فهذا امر غير وارد . فأنا اقول « تجديد » وهنا ليست القضية قائمة على اللعب بالكلمات ، بل على فهم الكلمات . التجديد تعني الفهم العام لحركة التحول . وتجديد . تعني الاشارة الى نوع خاص محدد من طريقة في التحول . اما ان يكون تعريفي للتجديد مدرسيا ، فيلزمنا ان نتوقف حول كلمة « مدرسي » لمناقشتها . فأنا انطلق من نقطة خاصة : الفن لا تاريخ له . الا ان الزمن مهم في حركة الفن . لذا فمراقبة التجديد هي مراقبة للتحول التركيبي والتعبيري للعمل الادبي خلال فترة زمنية محددة . فهل هذا هو الفهم المدرسي للتجديد ؟

واما ان يكون مقالي مفككا ، بسبب فهمي للتجديد فهذا خطأ . وخطأ أيضا الاعتقاد بانه كذلك لافتقاري الى منهج عملي في النقد . ولكنه عائد الى كون الاعمال الاربعة مفككة أساسا . حتى ان القصيدة الواحدة مفككة وبعض الاحيان محطمة وميتة ـ أي غير شعرية ـ . ولم أقصد أن أبني هيكلا واحدا لجميع الناس ، بل غايتي كانت قبل كل شيء غير ايديولوجية ، رغم ان الايديولوجيا تؤثر على توجيه التركيب النفسي والاجتماعي وتفييره . غايتي كانت ملخصة في رؤية الهياكل التي شيدها غيري والاشارة اليها واضاءتها حيث يجب ، بعد فهمها. ربما كان هذا تصورا خاطئا لعملي ، لكن هذا هو ما قصدته بصدق . والصدق يحتاج الى تعريف . وأعني انني بقيت على علاقات ثابتة مع أفكاري التي كونتها سابقا عن تصوري لهذا المقال رغم تطوري النسبي في الزمن خلال شهرين . الا ان التطور لا يجرف كل شيء . والتغير الجذري غير موجود في الفترة القصيرة .

ليون — خليل أحمد خليل

كتاب ختم الأولياء

تأليف

الشيخ ابي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

تحقيق

عثمان اسماعيل يحيى

عضو المركز القومي للأبحاث العلمية في باريس

شعبة الحضارة الاسلامية

يُطلب من المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت